المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ مايو سنة ١٩٤٩ ٣ رجب سنة ١٣٦٨

طوفان التقدم

صراع بين اللاهوت والعلم

— ٣ —

طوفان نوح

ومحاولة التوفيق بين اللاهوت والعلم

نظرية ان الحفريات سببها الطوفان — قبول هذه النظرية عند الكاثوليك والبروتستانت — بيرنت، وبستون، ووودوارد، مازورييه — إنكريز ماذر، شوخزر، نظرية فولتير في الحفريات — جهود مبذولة في سبيل تنوير رجال الكنيسة من طريق النظر العلمي — تقدم العلم بتؤدة — اعمال كوفييه وبرونيار — معارضة غرانفيل بن — انحياز سدجويك وبكلاند الى الناحية السلبية — تسليم اللاهوتيين — بقايا المعتقد القديم — القضاء الاخير على النظرية التقليدية باستكشاف القصة الكلدانية عن الطوفان — نتائج المعارضة اللاهوتية للعلم.

قبل نهاية المعركة التي أتينا على وقائعها في الصفحات السابقة بزمان طويل، بل في عهد مبكر جداً، اتضح لبعض المدافعين عن الأرثوذكسية ممن امتازوا بعمق الفكرة والتبصر، ما في الأسلحة المدرسية من الوهن وقلة الجدوى. ولما تجلت لهم تلك الصعوبات التي اكتنفت الحملة اللاهوتية المألوفة على العلم، بادر

تشير منهم إلى عمل على عقد هدنة . بذلك بدأ الطور الثالث من أطوار تلك الحرب — طور محاولة في سبيل التفاهم والتوفيق بين الناحيتين .

أما الوسيلة التي لجأ اليها هؤلاء « التفاهميون » أو « التوفيقيون » فانحصرت في القول بأن الحفريات هي من مبلدثات طوفان نوح .

كان هذا الاتجاه اتجاهاً قوياً ، يقتضي أنه قائم في الظاهر على نص الكتب المقدسة . وكان له ، بالإضافة إلى ذلك مبرر تكنيي ذو بال ، بحكم أن بعض آباء الكنيسة كانوا قد قالوا بأن البقايا الحفرية ، حتى تلك التي وجدت في أشمخ الجبال ، إنما هي حيوانات أبادها الطوفان . وقد استمسك « ترتليان » بهذه النظرية استمساكاً كثيراً ، كما ظن القديس أوغسطين أن سناً حفرية عثر عليها في شمال أفريقية ، هي واحدة من أسنان عملاق من العمالقة التي نوهت بهم الكتب المقدسة .

* * *

في القرن السادس عشر خاصة ، اتجه الرأي نحو هذه النظرية وأضفى عليها أولئك الذين اقتنعوا بتفاهة التعليلات المدرسية ، قيمة ووزناً كبيراً . ولقد قبلها رجال من أعظم رجال المفكرين ، الكاثوليكي والبروتستانتي . وكان مارتن لوثر أعظم رجال اللاهوت الحديث الذين روجوا لهذه النظرية . فقد وضح له أن العبارات والاستطرادات المدرسية ، لا تستطيع أن تواجه الصعوبات التي تثيرها قضية الحفريات ، فنزع بالطبع إلى إثبات أن أصلها إنما يرجع إلى طوفان نوح .

بهذا سيطرت تلك الفكرة على العالم النصراني ، وزين للناس أنه مامن شيء في مستطاعه الوقوف في سبيلها . غير أنها قبل نهاية القرن السادس عشر اعترضتها بعض العقبات . فقد أوضح « برنارد باليسي » ، وهو من أبعد علماء فرنسا نظراً وأدقهم ملاحظة ، كما أنه من أثبت النصارى عقيدة وإيماناً ، أن هذه النظرية فاسدة

من أساسه . وأظهر غيره من الباحثين ذوي النُّهى ، وبخاصة في إيطاليا ، صحة رأيه . ولكن ذلك كله ضاع هباءً وذهب سُدًى . تبدد كل جُهد بذله رجال طيبون أمناء في محاولة الكف من تلك الأضرار التي رأوا أنها سوف تصيب الدين إذ ما ربط بنظرية علمية ؛ كان من المحقق أنها ستنفجر فتذهب أباديد . وظلت نظرية أن المحفوريات إنما هي بقايا الحيوانات التي أغرقها الطوفان ، العقيدة الراسخة للعديد الأكبر من زعماء اللاهوت زهاء ثلاثة قرون ، على أنها "النظرية المعقولة" وعلى أنها الطريق المختار للتقريب بين مقتضيات العلم والنصوص المقدسة . ومن أجل أن تؤيد هذه النظرية القدسية ، حفزت الهمم وبذلت الجهود ، من جانب الكاثوليك والبروتستانت على السواء .

قبلها الأب البنديكتي "كالمت" في فرنسه وبشر بها في كتابه عن "الإنجيل" . حدث ذلك في أوائل القرن الثامن عشر ، إذ مضى معتقداً أن عظام "المستودون" التي عرضها "مازوريه" هي عظام الملك "طوطوبوقوس Teutobocus" ، واتخذها شهادة حية على وجود العمالقة الذين ذكرتهم المقدسات ، وعلى أن سكان الأرض الأولين قد طاح بهم الطوفان .

ولكن أعظم مؤيدي هذه النظرية ظهر في انجلترا . ولقد رأينا من قبل ، كيف أن "توماس بورنت" عند انتهاء القرن السابع عشر ، قد مهد الطريق في كتابه "النظرية المقدسة في الأرض" فنفى مستكشفات "نيوتن" وأظهر كيف أن الخطيئة قد حطمت أساس النور الأعظم ، كما رأينا أن "وستون" في كتابه "النظرية الجديدة في الأرض" بتسليمه بعض الشيء وقبوله مستكشفات "نيوتن" قد أدخل في الأرض مذنباً ساعد على إحداث الطوفان . ولكن يوحنا وودوارد أستاذ كلية جرشام ، كان أبعد من هؤلاء أثراً وأعلى ذكراً . فقد كان زعيماً

من رجال الفكرة العلمية في جامعة كمبردج ، ومن كبار المنقبين عن الحفريات الباحثين في تفسير معانيها وغوامضها ، فحاز بعلمه أسمى صنوف الاحترام والتبجيل. وفي سنة ١٦٩٥ نشر كتابه « تاريخ الارض الطبيعي » فخدم به العلم من طريق أنه سلّم بحقيقة ثابتة ، وبذلك هدم الأساس الذي تقوم من فوقه النظرية القديمة في الحفريات. فقد أظهر أنها ليست من ألهيات الطبيعة ولا هي نماذج زرعها الخالق في تضاعيف الطبقات الأرضية لغرض غير مستبان ، بل إنها بقايا حقيقية لحيوانات كانت حية ، كما قال اكزينوفانس قبل ألفي سنة وبذلك أدّى خدمة عظيمة للعلم وللدين . غير أن نصوص العهد القديم وقصة الطوفان وتلك العبارات المشهورة في رسالة القديس بطرس قد استقوت عليه بسلطانها القائم فراح يقول بأن الحفريات قد خلفها طوفان نوح . ولقد ساعده سلطانه في أن يسود الخلة على العلم بقوة وعنفوان عظيمين : فعرض « مازورييه » عظام حوت عثر بها في فرنسا ، على أنها من عظام العمالقة الذين ذكرتهم المقدسات ؛ وفعل الأب طُروبيا نفس الفعل في اسبانيا ؛ وأرسل إنكريز ماذر إلى انجلترا بقايا عثر بها في أمريكا مؤيداً بها نفس الاتجاه .

ومن أجل أن يتم تثقيف المؤمنين في العلم اللاهوتي ، علقت تلك العظام التي هي عظام العمالقة المذكورة في الكتب المقدسة وعرضت علانية في الأسواق . ولقد رأى جوردن بعضها معلقاً في كنيسة من كنائس مدينة والنس . وعمد هنريون مدفوعاً بقوة تلك العوامل اللاهوتية فوضع قوائم حدد فيها هنريون جسوم أسلافنا في عصر قبل الطوفان ، فقضى بأن طول آدم كان ثلاثة وعشرين ومئة قدماً وتسع بوصات وأن طول حواء كان ثمانية عشرة ومئة وتسع بوصات وتسعة أجزاء من البوصة !!!

غير أن أعظم صدمة أدّيت للنظرية اللاهوتية قد جاءت من صقع آخر .

في سنة ١٧٢٦ استكشف شوخزر عظاية حفرية كبيرة ، فعرضها على الناس متخذاً منها شاهداً إنسانيـاً على الطوفان . ولقد استقبل ذلك الاستكشاف ابتهاج بالتهليل في كل مكان ، فقد خيل إلى الناس أنه لا يثبت أن البشر قد أغرقهم الطوفان لاغير ، بل يثبت أيضاً أن هناك عمالقة عاشوا من قبله . وكوّن نظرية أن ينابيع الغور الأعظم قد فجرتها يد الله بفعل مباشر ، وأن هذا الفعل ، إذ وقع أول شيء على محور الأرض ، قد أوقف الأرض عن حركتها الدورانية ، وفجر ينابيع الغور الأعظم ، ففارت المياه المخزونة فيه ، وكان الطوفان . ولم تقف خدمته للعلم اللاهوتي عند هذا ، فانه جهز نسخة من الأناجيل زودها بعدد عظيم من الصور المحفورة التي تؤيد وجهة نظره ، وفرضها على القراء فرضاً وأرغمهم إياها إرغاماً . ولقد اختص الطوفان من هذه الصور بأربعة وثلاثين .

في خلال هذه الأحداث مرت فترة كانت إلى الهزل ، ولكنها كانت ذات أثر بالغ في الإرشاد وحسن التوجيه . ذلك بأنها تظهرنا على أن محاولة تحوير استنتاجات العلم بحيث توافق مقتضى العقيدة ، قد يضلل التفكير الحر كما يضلل التفكير المقيد بالمقدسيات .

حوالي سنة ١٧٦٠ ترامى إلى فولتير خبر استكشاف حفريات بحرية مقربها في أصقاع مرتفعة في مختلف أنحاء أوربا . كان لفولتير مذهب لاهوتي يؤيده ، بالرغم من معارضته الشديدة لكتب العبرانيين المقدسة . ولقد روعه أن تتخذ هذا الاستكشاف سبيلاً إلى تأييد القصة الموسوية عن الطوفان ، فاستجمع كل قوته البيانية وراح يسخرها في تأليف أدلة وبراهين ليثبت أن تلك البقايا هي بقايا أسماك حملت لتتخذ طعاماً ، فلما فسدت ألقى بها المسافرون في الطريق ، وأن الأصداف الحفرية إنما ألقى بها الصليبيون اتفاقاً لدى عودتهم من الأرض المقدسة

وزاد إلى ذلك أن العظام الحفرية التي عثر بها بين باريس وإيتامن، إنما هي بقايا هيكل عظمي خزنه فيلسوف قديم في صومعته. وتتابعت من قلم فرلتير الفصول تلو الفصول، مستجيباً لمقتضى الضرورات التي فرض أن مذهب اللاهوتي يحتاج إليها، ومضى يكافح كل نتائج العلم الجيولوجي التي ذاعت في عصره.

ولكن أشد ما أصاب النصرانية من أضرار التحامل والحقد قد أتى من طريق الإمعان في الجهد مبذولاً من تلك الناحية التي حاولت أن تظهر أن الحفريات إنما سببها طوفان نوح.

لم يقم في فكر المؤيدين للاهوت أن هنالك من فرض أو خيال أو وسيلة هي من التشدد بحيث تحملهم على تجنبها والاقلاع عنها — إذا هم رأوا أنها حيوية لتأييد نص الانجيل. وباتخاذ ما جاء فيها من الاشارات العابرة والعبارات الغامضة على أنها الحق الثابت، والاستمساك بأن ذلك الشعر المقدس هو حقائق نثرية لا مبدل لها، وتفسيرها تفسيراً حرفياً صرفاً، أقام أتباع "بارنت" و"وستون" و"ودوارد" رأياً كان له من العلاقة والأثر في علم الجيولوجيا، نفس ما كان لكتاب "قوزماس" — الطبوغرافية النصرانية في علم الجغرافية. وعبثاً ذهبت كل المجهودات التي بذلت في إقامة البراهين البيولوجية والحيوانية والفلكية على أنه لم يقع من طوفان عام، أو طوفان غمر جزءاً كبيراً من الأرض في خلال ستة آلاف العام المنصرمة، أو في خلال ستين ألف سنة مضين. وسدى ذهب كل ما فعل الأسقف كلايتون وهو من مستنيري أهل الكنيسة في سبيل القول بأن الطوفان لا يمكن أن يكون قد امتد لأكثر من البقعة التي عاش نوح فيها. وكذلك تبددت جهود غيرهم أمثال الأسقف كروفت والأسقف ستيلنجفليت وماتيو بول وهم من المثقفين، في سبيل إثبات أن الطوفان ربما لم يكن عاماً شاملاً

وجه الأرض كله . بل عبثاً ما أظهر الباحثون من أن الطوفان حتى لو كان عاماً شاملاً ، فإن الحفريات لا يمكن أن تكون أثراً من آثاره ولا يمكن أن يكون السبب فيها .

لم يكن هنالك من جواب على هذه الحقائق إلا اللجوء إلى النصوص المقدسة، وأن كل الجبال الشوامخ التي هي على ظهر الأرض والتي هي تحت الماء قد غمرت . ومن أجل أن يضفي على هذا البحث حصانة دينية أعلن وودوارد ومن على غراره من الرجال ، إن محاولة إقامة أي برهان على أن الحفريات ليست من مخلفات الحيوانات التي أغرقها طوفان نوح ، كفر وخروج عن الدين . ولبعض الأعتقاد في انجلترا وفرنسا وألمانيا قائماً على أن الحفريات إنما هي تركة خلفها طوفان نوح ، بل ذاعت الفكرة في أن الاستمساك بهذا المعتقد ضروري للخلاص الأخروي .

ولكن العلم ظل يتقدم بخطى متزنة لم يقفه من شيء ، لا قوة الكنيسة ، ولا الرسوم المحفورة البارعة التي زين بها « شوخزر » طبعة الأنجيل ، وبذلك أخذت الأسس التي تقوم عليها النظرية اللاهوتية تتداعى وتضمحل . على أن عملية الهدم كانت بطيئة ولا شبهة . لقد احتاجت عشرين ومئة سنة حتى يتسنى للحقائق كما بينتها الله في الطبيعة أن يجلوها باحثون من طراز هوك ولينايوس وويتهرست ودويتون وكوفييه ووليم سميث ، وأن يتسللوا بحقائقهم من وراء تلك الأخطاء المتراكمة والأغاليط المتراصة المتراكبة ، لينشروا رسالة النور مجلوة في عبارات احترزوا فيها كل الاحتراز حتى لا تستثار اللاهوتية الهوجاء ، وليتهيأ لهم أن يبثوا ألغامهم في أصول تلك الأوهام . حتى اذا استهل القرن التاسع عشر ، كان العلم قد بلغ من القوة مبلغاً لا يقاوم . وشق الطريق أفذاذ من العلماء مثل فون بوك وبارمنباخ وشولتيم ، ولكن أثر كوفييه في القارة كان طرازاً وحده . في

السنوات الأولى في ذلك القرن أخذت بحوثه في الحفريات تلقي ضوءاً لامعاً على علم الجيولوجيا . ولا شك في أنه كان من غلاة المحافظين ، محضاً في الحذر والكياسة ، بل انه كان عند قولة فولتير : « بين الذئاب يستحب الحذر بعض الشيء » . كان عصره عصر رجعية ، فقد هادن نابوليون الكنيسة ، والعبث بهذه الجديدة معناه الخيانة . ولقد استطاع كوفييه بما اصطنع في التصورات الغامضة الفضفاضة ، أن يرضي رجال اللاهوت ، في الوقت الذي بث فيه أنغامه الثورية في أمنع تلاعهم . ولقد أدرك الخطر بعض المؤيدين للكنيسة . أدركوه بغريزتهم اللاهوتية ، وكان « شاتو بريان » رجلهم الطرازي . ففي كتابه « عبقرية النصرانية » ، وهو من الكتب الشنى في عصره ، التافهة في عصرنا ، عالج مشكلات الخلق ، معتمداً على المخادعة ، مستمداً من عبارة في « البدء »[1] دليلاً استند عليه في القول بأن الخلق لم يتم دفعة واحدة ، بل بتطورات كانت موجودة من قبل . ولكن الانتصار الحقيقي كان من نصيب « برونيار » الذي نشر كتابه في الحفريات النباتية سنة ١٩٢٠ ، فأقام به سداً لم يقو على اقتحامه أعداء العلم .

ومع هذا كله لم تنته المعركة ، بل تجدد الأمل في كسبها ، إذ قام رجل تزعمها « غرانفيل بن » في انجلترا .

قامت نظريته على أساس القول بأن « كرة الأرض قد جرى عليها انقلابان : الأول : الخلق ، والثاني : الطوفان ، وكلاهما حدث بأمر الله وحكمته التي لا ترد » . ومضى يوقن بأن الخلق قد تم في ستة أيام من أيامنا العادية ، لكل منها « مساء وصباح » . واختتم بحثه بعبارات من تلك التي ألفها الناس ، بأن أهاب بكوفييه وغيره من الجيولوجيين أن « يتحوا المسالك القديمة ويستنكروها حتى يبسطوا

---

(١) « في البدء خلق الله السموات والارض » سفر التكوين الاصحاح الاول :

مذاهبهم ويرجعوا عما قالوا به من حدوث الانقلابات المتوالية في سطح الأرض [illegible] القول بانقلابين اثنين أو حادثين آخرين هما الخلق السبعة وطوفان نوح. غير أن الجيولوجيين لم يستجيبوا لهذه الدعوة، بل على العكس من ذلك أعلن رئيس الجمعية الجيولوجية البريطانية، والأسقف "[illegible]" وهو جيولوجي نابه من رجال الكنيسة، إنهما يعترفان بأن اعتقادهما [illegible] حملهما على أن يطرحا نظرية أن حفريات العصر الفحمي قد طمرت في طوفان نوح [illegible] أن الطوفان كان شاملاً.

شعر الحزب الأورثوذكسي [illegible] "بكلاند" من أثر ومهد. ولقد اتخذ من كفايته وأمانته وولائه لعقيدته الدينية إذ كان راعياً لكنيسة "كرايست"، وأستاذاً لعلم الجيولوجيا في جامعة أكسفورد، سلطاناً ومدداً استخدمهما كاملين في تهدئة زملائه من رجال الدين. في أول محاضرة له حاول بجهد أن يظهر أن الجيولوجيا تؤيد عبارات الخلق والطوفان كما يذكرها سفر التكوين، وفي سنة ١٨٢٣، وبعد أن أظهرت كشوفه في مختلف الكهوف ما لا سبيل الى رفضه أو إدحاضه بقدم الأرض بل إيغالها في القدم، كان لا يزال متشبثاً بنظرية الطوفان على ما جاء في كتابه "الآثار الطوفانية" Reliquiae Diluviae

على أن هذا المرض الحزبي المعادي للعلم [illegible]. فاتخذت هجماتهم عليه صورة هي الى السخرية أكثر منها إلى البغض والمقت. والمثل على ذلك هجاء كتب "شاتلوورث" الذي صار فيما بعد أسقف "شيستر" مقتدياً به الشاعر "بوب" في سفره الذي هاجم به "نيوتن"، وقد جرى هذا الهجاء على النمط الآتي

(ذات مرة قامت بعض الشكوك عن الطوفان، فلما تصدى لها "بكلاند" صفى الأمر صفاء الطين).

"Some doubts were once expressed about the Flood:
Buckland arose, and all was clear as mud!"

عندما غادر «بكلاند» جامعة أوكسفورد في رحلة الى جنوبي أوربا، سمع الأسقف «جيسفورد» يقول متنفساً الصعداء: «حسن. لقد ذهب بكلاند الى إيطاليا، فحمداً لله إذ سوف لا يأتينا بمزيد من هذه جيولوجيا».

هبت العاصفة على هدوئها النسبي ونزل بعض الاطمئنان بالتقريب، فظل «بكلاند» مؤيداً «للنظرية الطوفانية». ولكن عندما ألقى سلاحه وسلم، استمر أوار المعركة، وتبدلت الأهاجي والصور الاستهزائية، بهجمات عنيفة مريرة، وانهال عليه من المنابر والصحف سيل من الإهانة والقذف. أما أشنع القذف فقد انصب على سير «شارلز ليل». وقد رأينا أنه نشر كتابه مبادئ الجيولوجيا في سنة ١٨٣٠. وما من كتاب كان أمعن من هذا الكتاب حذراً وتلطفاً. جمع فيه مؤلفه جملة المستكشفات التي وصل إليها الباحثون لعهده، واستخلص منها الاستنباطات الضرورية بأبين سبيل وأثبت منطق. ولذا يعتبر الى الآن من الكتب التي يفخر بها العالم الأنجلوسكسوني — ذلك بأنه أحد الشواخص البينة في طريق الفكر الانساني.

ولكن النزعة في هذا الكتاب كانت بالضرورة مخالفة لتلك الأساطير الكلدانية وغيرها من الخرافات التي راجت عن الخلق والطوفان وانتحلها العبريون بعد أن نقلوها عن مدنيات جاورتهم وكانت أقدم من مدنيتهم، ثم أدمجوها في الكتب المقدسة التي رموا بها الدنيا الحديثة. فكان نصيبه الرفض البات القاطع.

استمسك اللاهوتيون ورجال العلم الذين نهجوا نهجهم بأن الانقلاب من شأن التغايرات الجيولوجية واعتماد «ليل» على الفعل التدرجي الصادر عن علل طبيعية لا تزال تعمل الى الآن، قد هدد النصوص القصصية في الخلق ولم يترك مجالاً

لتدخل المعجزات. ولما رأوا أنه قد قضى على فكرتهم الأثيرة في الانقلابات الجيولوجية العظمى التي انتابت سطح الأرض، وفي الخرافات المديدة ومنها أثر من طوفان نوح، وأنه أظهر أن الخلق يحتاج الى زمان أطول بكثير من ذلك الزمان الذي يمكن استنتاجه من تاريخات العهد القديم وأنسابه، انفجر غضب الأرثوذكسية انفجاراً ذريعاً عنيفاً. فهاجمه زعماء الكنيسة الكبار بلا رحمة. وقد ظن زملاؤه في مجال "النقد الاجتماعي"، لأن الكنيسة لم يكن في يدها إذ ذاك أن تفعل به أكثر من هذا.

* * *

ولكن لم يلبث هذا غير قليل، اتخذ جانب العلم وسيلة الى تحطيمه، وأغري به "كوفييه" بسلطانه وعنفوانه. ولكنه ظهر غير بعيد أن هذه الوسيلة لا غناء فيها، لأن المفكرين لم يصغوا "لكوفييه" وأصغوا الى "ليل". أما كتاب "كوفييه" الذي سماه "نظرية في تكوين الأرض" وهو من كتب الأرثوذكسية المعروفة، ففقد قيمته في اعتبار رجال العلم، فلم يطبع طبعة ثانية. في حين أن كتاب ليل قد طبع اثنتي عشرة طبعة متوالية. وظل أساساً ركيناً من أسس التفكير العلمي.

ثم ظفر بالاعتدال من مبادئ "كوفييه" العالم "فيرهوم" صاحب كتاب "الطوفان الموسوي" الذي ظهر في سنة ١٨٣٧. وقد ذهب الى أنه من المتعذر أن يكون قد نزل بالأرض أمثال تلك التقلبات المكررة التي يفرض الجيولوجيون وقوعها، لأنه من المستحيل أن يقع طوفان "قبل أن تحدث تلك الخريقة الأدبية" أي قبل خلق الانسان. ولقد عبر بجمل مثيرة عن أسفه على ما وقع فيه رئيس الجمعية الجيولوجية والأسقف "بكلاند" من القصور وقلة

الكتب ، معارضاً أولئك الجيولوجيين الذين " يضعون رؤوسهم منخفضة عما أوحي به إلى كل رسول ونبي " .

ومع هذا مضى الجيولوجيون يذبون عن الحق . فإن الجرثومة التي غرسها " وليم سميث " خاصة ، قد نشأها وربيها منظومة كريمة من الباحثين الذين خدموا العلم نصراً مبيناً . ذلك في حين أن أولئك اللاهوتيين الذين شعروا بأن اتهام العلم على أنه كفران وإلحاد لا يجدي غير قليل ، راحوا يتبعون طرائق خديعة توفق بين حقائق الجيولوجيا وسفر التكوين . ولقد أظهر بعضهم قرائح نيرة ، ولكن سلطاناً دينياً مجتاحاً كان يخمد جذوتهم ويحط من عزمهم ، إذ يدمغهم حيناً بعد حين بأنهم متطرفون خياليون . على أن هذه المحاولات قد تباينت وتباينت من حيث المرونة والقيمة . ولكن الحقيقة التي صبغتها جميعاً كانت تدريجياً من التسليم قل أم كثر ، بتقسيمات تزيد أم تنقص ، فتخرج منها نتائج هي إلى البعد عن الحقائق بمقادير متفاوتة . وبالرغم من أن قليلاً من الرجال قد عكفوا على هذه الطريقة متفرقين فإن التسليم وإلقاء السلاح من جانب ذلك الحزب الذي ناهض حقائق الجيولوجيا بأسطورة طوفان نوح قد يكون تاماً .

ومن الشواهد الأولى على أن هذا التسليم كان كاملاً ، ما رواه الجيولوجي ، المعروف دكتور " بي سميث " ، ويحسن بنا أن ننقل هنا كلماته بنصها قال : —

" إنك لتعرف كتاباً ذا قيمة كبيرة هو كتاب دكتور " سميث " المسمى " معجم الإنجيل " وإني لأعرف الملابسات التي أحاطت بترتيب هذا المعجم فإن الفكرة تقتضي ، والمشرف عليه قد أشار إلى أن يتضمن المعجم من بحوث النقد الحديث ما يتفق ، يطابق روح المحافظة مطابقة شريفة معتدلة . وقد لم أر أي

على أن لا يعارضنا علم الجيولوجيا ، ولكن القول بشمول الطوفان كان من المبادئ التي تشددوا في الاستمساك بها . فعهد المشرف بالمقال الخاص بالطوفان لعالم ثقة عظيم الكفاية ، فلما وصله المقال ألفى أنه عمن في الهرطقة مقال من التحرر من القديم ، فلم يقو على وضعه في المعجم . ولم يتسع الوقت لكتابة مقال آخر لهذه المادة ، حتى أنك اذا تصفحت هذا المعجم وجدت أن مادة « الطوفان » قد أحالت على مادة فيضان[1] وقبل أن يصل ترتيب المعجم الى مادة « فيضان » طلب المشرف مقالاً آخر من مصدر ظن أنه من المحافظين الذين ينشدون سلامة الدين . فلما وصله المقال وجد أنه أنكى من الأول وأقذع ، فكتب مقال ثالث تحدث فيه كل الحيطة ليكون أمين التجه سليم الضبة . فاذا نظرت في كلمة « فيضان »[2] وجدت أن الكاتب أحالها على مادة « نوح » حيث كتب مقال عهد به الى استاذ ممتاز من أساتذة جامعة « كمبردج » . أتذكر أن الاسقف « كولنسو » ذكره مرة لي فقال : إن كاتبه قد حاذر محاذرة تامة في تحريره حتى أنه أهمل الكلام في هذا الامر اهمالاً تاماً . ومن هنا ترى تحت أية صورة من صور الكبت وخمت الفكرة العلمية وأي جهد بذلت في هذه الناحية من البحث » .

شهد تاريخ هذا الصراع تطوراً آخر شبيهاً بهذا ، فإن « هورن » أصدر طبعة جديدة من كتابه « مقدمة الأناجيل » وقد اعتبر كتاب الارثوذكسية المثالي ، فأسقط منه بغير جلبة ولا ضوضاء فكرة اتخاذ الحفريات برهاناً على شمولية الطوفان .

---

(١) كلمة طوفان Deluge تأتي في الترتيب المعجمي قبل كلمة فيضان Flood فأحال المعجم عليها .

(٢) وكلمة فيضان Flood تأتي قبل كلمة نوح Noah لكن المشرف على هذا المعجم قد أحال « طوفان » على « فيضان » فلما لم يظفر بمقال يطابق وجهة اللاهوت أحال « فيضان » على نوح ، ثم لم يكتب في هذه المادة شيء يتنافى بحجة العلم .

وحدث مثل ذلك في أميركا بعيد ذلك سنة ١٨٤٠ فإن أستاذاً من نابغي الباحثين في ... بيروت ... للآداب الأكليريكية في ... الكنيسة البروتستانتية الأسقفية، هو دكتور «صموئيل ترنر» قد اعتقد ... الحق فاعترف به مثبتاً بذلك أنه جدير بإيمان النصراني وشجاعته الأدبية. ولما نبذ ذلك النزاع القديم واطرحه جماعة عظيمة من الجماعات النصرانية، ... بعيد ذلك رجلان جليلان من رجال الدين اتصفا بالتقوى والعلم الواسع ... للكنيسة النظامية الأسقفية، فأدمجا في «الموسوعة الانجيلية» التي عنيت بإشرافهما، ملخصاً كاملاً للبراهين الجيولوجية والفلكية والجغرافية المثبتة أن طوفان نوح لم يكن شاملاً وإنه لم يشمل رقعة واسعة من سطح الأرض ... يعترض على هذا العمل رجل واحد في أي فرع من فروع الكنيسة الأمريكية.

وكانت سنة ١٨٦٢ هي الحد الفاصل بين النزعة القديمة وبين الأخذ بالأساليب الحديثة من جانب رجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، عندما نبذ «روش» أستاذ اللاهوت في جامعة ... في كتابه «الأنبياء» ... الطبيعية ... النظرية المرذولة القديمة ... التي أقرها ...

ولكن على الرغم من أن ... التي اتخذت من طوفان نوح وسيلة لدعم ... التي ... في الاحتضار، فإن نواحي من الفكر ... بقيت ...

على أن الكتلة الرومانية ... النظرية القديمة ... المطبوعات ومن ... المنابر ومن كراسي ... اللاهوت. ولقد دلّ البابا «بيوس التاسع» على ... في مدينة بولونيا سنة ١٨٥٠.

وفي سنة ١٨٥٦ هنأ الأب " دورين " لاهوتيي فرنسا على موقفهم الرائع قال : " إنهم بفروقهم لا يزالون يتمسكون باستمداد الفكرة في الحفريات من طوفان نوح ". وفي سنة ١٨٧٥ نشر الأب " شوابيه " في باريس وفي " أجير " متناً رحب به رجال الكنيسة أعظم ترحيب وأجازوه بصدق عقيدة ، وقد نحى فيه مثل ذلك المنحى . وفي سنة ١٨٧٧ نشر الأب اليسوعي " برسنزيو " Brescianio في " مايتس " مقالاً عنوانه " الجيولوجيا والطوفان " ، لجهد أن يرد الدنيا إلى الوراء وأن يحمل الناس على الاعتقاد في الحل التقليدي لتلك المشكلة العلمية ، جانحاً إلى القول طبعاً إلى أن أيام الخلق إنما هي أحقاب متطاولة ، ولكنه كفر من إجازة هذه ... بالبيانات السحرية التي زين بها " درون ".

وفي سنة ١٨٦٩ قال «مكاريوس» رئيس أساقفة الكنيسة الروسية الرومية في لترانيا بضرورة الاعتقاد في أمرين : هذا الخلق في ستة أيام عادية وفي طوفان نوح ، وأنهما السبب في كل الأشياء التي يحاول علم الجيولوجيا تبيانها . وبعد ذلك بسنين أي في سنة ١٨٧٦ قام لاهوتي تابع من ذلك الكنيسة وذهب لأبعد مما ذهب صاحبه ، فأنكر على المؤمنين أن يعتقدوا بحدوث أي تغير منذ ذلك « البدء » الذي ذكره سفر التكوين ، عندما نضدت طبقات الأرض وخططت ثم صنعت ، ورصعتها يد الله بالحفريات في خلال ستة أيام عادية .

في الفرع اللوثري من الكنيسة البروتستانية تجاوبت الأصداء بمثل هذا المعتقد . فإن « كايل » أستاذ جامعة « دوربات » الذي له ذكره في التفسيرات الأنجيلية ، ألف مقالة نشرها في سنة ١٨٦٠ حكم فيها بأن علم الجيولوجيا قد ارتد عقيماً ، وأن تعليلاته قد سقطت بحكم حقيقتين كبيرين : الأولى — اللعنة التي طردت آدم وحواء من الجنة ، والثانية — الطوفان الذي قضى على جميع الأحياء ما عدا نوحاً وأسرته

والحيوانات التي حملها في الفلك . وفي سنة ١٨٦٧ تقدم « فيلبي » وتبعه « ديتريش » في سنة ١٨٦٩ ، وكلاهما لاهوتي ذائع الصيت ، فأنحيا ذلك المنحى ونحيا ذلك المتجه في المانيا ، وحاول ثانيهما أن يضرب العلم والعلماء ضربة يردها الى حظيرة الدين ، فقال عبارته المشهورة « إن من حق علم الجيولوجيا أن ينظر فيما هو كائن ، لا في منشأ الأشياء » . وهي عبارة رنانة ولكنها خاوية كالقصبة الجوفاء

وحتى سنة ١٨٧٦ كان «زوجلر» من مؤيدي هذا المتجه ، وجمع عليه لفيف من اللاهوتيين أقل منه شأناً ، وأخذوا يبشرون به الناس من فوق المنابر وفي الصحف لعلهم يقسرون التفكير على الأخذ بما يضاد العلم ، فلم يكن لعملهم هذا من نتيجة اللهم إلا أن تزداد الشكوك التي تساور المفكرين في النصرانية ، وبخاصة بين ناشئة الشباب الذين فقدوا كل ثقة في قضية هذه براهينها وعُدَدُها .

ذلك بأنه في حوالي ذلك العهد أصيب المتجه التقليدي في الطوفان بضربة قاتلة ، وبطريقة لم تكن متوقعة . فإن بحوث « جورج سميث » في الألواح [illegible] أشور نفسها ، قد كشفت بما لا يترك مجالاً لشك أو ريب ، أن كثيراً من الأقاصيص التي يتضمنها سفر التكوين ، إنما هي في أصلها أساطير وخرافات كلدانية قديمة تكيفت وحل بها بعض التغيير

ولم يقم البرهان على ذلك في ما يختص بأقاصيص الخلق وهبوط الانسان ، بل قام أيضاً على الطوفان بصورة واضحة قاطعة . أما اللوحان الحادي عشر والثاني عشر وهما اللذان يتضمنان أهم هذه النقوش ، فقد نقلا سليمين تقريباً ، وهما يتضمنان أساطير سجلت في الحجر خلال زمن أوغل بكثير من عصر موسى قدماً ، وتتناول فيما تتناوله أشياء جديرة بذهن الانسان اذ كان في طفولته ، فتذكر بناء الفلك

للفكاك من الطوفان ، والعناية ببناء سفينة من خشب ونجاة انسان محبب للسماء ، واختياره وأخذه في السفين من كل ضروب الحيوان زوجين اثنين ، ثم قفل باب الفلك وارسال أفراد من الطير عندما أخذ الطوفان يتناقص ، وتقديم القرابين والأضحيات عند ما غاض الماء ، وفرح « الموجود القدسي » الذي صنع الطوفان عندما استنشق ريح القربان بمنخريه . ذلك في حين أنه في خلال هذه الأسطورة قد أضفى على العدد « سبعة » وهو العدد المكرر في الشمس من الشيبة والاحترام ، ما نقع على مثله في أساطير سفر التكوين وفي الكتب العبرانية المقدسة جميعاً .

تبع ذلك ظهور باحثين تمادوا في البحث واستماتوا في سبيل العلم من أمثال « سايس » في انجلترا و « لينورمان » في فرنسا و « شرادار » في ألمانيا ، واتبعوا جميعاً نفس الطريق الذي سار فيه « جورج سميث » فكانت نتيجة بحوثهم أن نبذت الأسطورة العبرانية في الطوفان ، تلك الأسطورة التي عمل اللاهوتيون خلال أزمان متلاحقة على أن يلزموا البحوث الجيولوجية إقرارها ، حتى لقد رفضها في تؤدة [illegible] الطرافة ودنيا الأسطورة .

ثمت محاولات متفرقة لتحد من قوة هذا الكشف العظيم ، ولقد اتضح أن الخوف من ذيوعه ونشره في الناس ، قد أثر تأثيراً حقيقياً في سلطان رجال الدين النصراني وحدّ من عنفوانه .

ومع كل هذا فان انتحال الأساطير الكلدانية وبثها في تضاعيف المقدسات العبرانية ، هو أحد البراهين الدامغة على قيمة الأناجيل النصرانية من حيث دلالته على نزعة تقدمية نشأت في الانسان . فإن الأسطورة الكلدانية تعزو حدوث الطوفان أول شيء الى الشهوة المطلقة لإله بعينه من بين عديد من الآلهة هو (بعل) . أما القصة العبرانية فعبارة عن تكييف لهذه الأسطورة عزي به الطوفان

الى العدل الصمداني والنبوة الربانية تصدران عن إله واحد. وهذا يظهر لنا بصورة قاطعة على درجة من التطور أرقى نسبياً وأنبل عاطفة، إذ هي تلتمس سبباً دينياً لتبرير مثل هذه الكارثة العظمى.

ومما يبعث على أشد الأسف أنه حتى بعد أن بلغ العلم هذا المبلغ، فإن سياسة إنكار مثل هذه الموحيات الفقهية الجديدة كانت عامة على وجه التقريب، اللهم إلا إذا استثنينا فئة قليلة من ذوي التحرر الفذ من رجال الدين. أما السبب في جمود هذه النزعة في بلدان الكثلكة الرومانية وبلدان البروتستانتية على السواء، فلا يعوزنا العثور عليه الى كثير من الجهد. ولا حاجة لنا هنا بأن نمضي في التعريف بالحالة التي كان عليها فكر الأوساط من الناس في فرنسا وإيطاليا. أما في ألمانيا، فعلينا أن نذكر حقيقة مثالية هي أنه في سنة ١٨٨١ لم يكن في كنائس برلين من الوسائل إلا ما يتسع لاثنين في المئة من مجموع سكان المدينة، بل كانت هذه الوسائل أكثر من الحاجة. لا تدل هذه الحقيقة بطبيعة الحال على اضمحلال الروح الديني عند الشماليين من أهل ألمانيا، فإن المعروف أنهم شديدو التدين والروح الديني على أشده بينهم. ولكن السبب في ذلك راجع في الأكثر الى أن حقائق العلم البسيطة تسربت الى نفوس الناس وتشربتها عقولهم، في حين أن الحزب الغالب في الكنيسة اللوثرية قد ظل يرفض هذه الحقائق، ومضى يفرض على الناس ضرورة التفسير الحرفي للنصوص المقدسة، ويلزمهم التزاماً عقيدياً بها. وتلك نزعة كان العقل الألماني قد شب عن طوقها وأفلت من أصفادها. ولا شك في أن ذلك سوف يكون نصيب كل جماعة ينتحي فيها رجال الدين هذا المنحى ويتبعون مثل هذا الأسلوب. ولا مشاحة في أن هذا يحز في قلب كل مفكر مهما كانت نزعته الدينية. وأن هيئة دينية مستنيرة متفكرة تقية: هي في كل مكان وحينما تكون، نعمة ورحمة.

إسماعيل مظهر